

المقاومة الثقافية وآليات السرد في رواية (مصائر كونشيرتو النكبة والهولوكوست) لربعي المدهون- دراسة من منظور إدوارد سعيد

The Cultural Resistance and the Mechanisms of Narration in the Novel Destinies Concerto of the Holocaust and the Nakba by Rabai al-Madhoun A Study from the perspective of Edward Said

عائشة بوساحة^{1*}، د. مداني زيقم²

¹ مخبر الدراسات اللغوية والأدبية، جامعة محمد الشريف مساعدي، سوق أهراس- الجزائر

a.boussaha@univ-soukahras.dz

² مخبر الدراسات اللغوية والأدبية، جامعة محمد الشريف مساعدي، سوق أهراس- الجزائر

madani.zikem@univ-soukahras.dz

تاريخ الاستلام: 2022 / 05 / 30 تاريخ القبول: 2022 / 07 / 27 تاريخ النشر: 2022 / 07 / 31

Abstract:

This study seeks to reveal the concept of cultural resistance in post-colonial criticism. Edward Said, a pioneer, embraced the concepts of culture and resistance and promoted the principles on which it was held. The study seeks to highlight how the text of "Maṣā'ir" by Rabai al-Madhoun, was shaped as a form of cultural resistance and to respond to Zionist contrivances. In addition, it discusses some of the aesthetic manifestations of the contemporary Palestinian novel portrayed in the collection of narrative mechanisms the novelist is committed to. A polyphony technique was used within the framework of the monologue, the dialogue between the characters and their interaction within the text, and the use of the musical concerto technique as the foundations of a modernist aesthetic.

Keywords: Cultural Resistance, Edward Said, mechanisms of narration, Rabai al-Madhoun

ملخص البحث:

نسعى في هذه الدراسة إلى الكشف عن مفهوم المقاومة الثقافية في النقد ما بعد الكولونيالي عند أبرز المفكرين الذين تبنا مفهوم الثقافة والمقاومة إدوارد سعيد والوقوف عند أهم الركائز التي قامت عليها، ثم البحث عن مدى تشكل نص مصائر لربعي المدهون كشكل من أشكال المقاومة الثقافية والرد على التلفيق الإسرائيلي، ومناقشة بعض المظاهر الجمالية للرواية الفلسطينية المعاصرة التي تتحدد في تقنية تعدد الأصوات وتوظيف آلية الكونشيرتو الموسيقي كأسس جمالية حديثة.

الكلمات المفتاحية: المقاومة الثقافية؛ إدوارد

سعيد؛ آليات السرد؛ رباعي المدهون

مقدمة:

معظم الحالات إلى غلبة الاحتلال وفرض التحرر العسكري والفكري ، وعلى هذا الأساس تمر المقاومة بمرحلتين " بعد مرحلة المقاومة الأولية التي تعني حرفيا القتال ضد الاقتحام الخارجي، تأتي مرحلة المقاومة العقائدية ، إذ تبذل لإعادة تكوين مجتمع محطم"¹ وسيلتها في ذلك الثقافة هي الأداة الناجحة في محاربة الفناء والقهر الذي تمارسه الهيمنة في العالم² ومقارعة الظلم مهما عتا. وتحدي السلطة بدلا من خدمتها. هي ليست عالما من الأفكار المزينة أو نمطا من العيش يمارسه المجتمع بتلقائية ، بل عنصر يسمو على الإقليمية والقومية والمكانية ويتسم بالكونية والشمولية، وسلاح في يد المثقف يكسبه دورا فعالا في محاربة الفساد ونطق الحق والدفاع عن المقهورين والمهمشين والتحرر من كل القيود التي تعيقه "فمن واجبه بل ينبغي له أن يكون صاحب وعي نقدي ، وعي لا يكون حبيس إيديولوجيا ما أو حزب ما، حتى يتمكن من إعادة النقد إلى العالم، والبحث عن حرية الرأي وحرية التعبير"³ تصير الثقافة في قلب ظاهرة الهوية لتتحول إلى عنصر متحرك بداخلها لأنها تكتسب وتتطور وبالتالي تؤثر الهوية على استراتيجيات الثقافة ويمكن أن تغيرها وهذا ما يفسر اختلاف الهوية الثقافية لمجتمع دون الآخر.

يقول إدوارد سعيد عندما يتعلق الأمر بالهوية السياسية عندما تكون عرضة للتهديد، فإن الثقافة تمثل أداة للمقاومة في مواجهة محاولات الطمس والإزالة والإقصاء، إنَّ المقاومة شكل من أشكال الذاكرة ضدَّ النسيان، وبهذا الفهم أعتقد أنَّ الثقافة تصبح على قدر كبير من الأهمية⁴

وقد تعددت آراؤه حول هذه القضايا، ففرن الهوية بالهيمنة والسلطة والقوة تتأثر بها وتعيد بناء نفسها وفق ذلك، ويصير من الأهمية تفكيك هذه

تهتم الدراسات ما بعد الكولونيالية بتفكيك الخطاب والممارسات الاستعمارية والاستبدادية وفضح نوايا المستعمر، بهدف إرساء الحرية، والعدالة، والكرامة، والبحث عن بديل اجتماعي يكفل للمهمشين والمقموعين حقوقهم، ويجعل أصواتهم مسموعة في عالم مثقل بالقوة والهيمنة.

وفق المنظور ما بعد الكولونيالي فإن المركزية الغربية أخضعت ثقافات العالم الثالث لسلطتها وحرمتها من ثقافتها وتواريخها المميزة لها، تتأسس المقاومة بوصفها فعل مضاد ومعارض وذلك بالرد على خطاب الاستعمار وتفكيكه لسلطتها ثم إحلال خطاب قوميّ بديل محل الخطاب الاستعماري ، ويعدّ إدوارد سعيد أحد أهمّ المشتغلين في حقول هذه النظرية ، حيث أثار العديد من الإشكالات المتعلقة بالخطاب الكولونيالي الغربي في مشروعه الساعي إلى فضح إيديولوجيا الهيمنة وإرادة الخضوع للآخر والتي أصبحت لها امتداداتها النصية والروائية وذلك في أعماله النقدية العديدة ، التي تشكل بحثا منهجيا عميقا وتأسيسا لمقاومة ثقافية ضد الأطروحات الكولونيالية وعلى رأسها الخطاب الصهيوني انتصارا منه للقضية الفلسطينية وإيمانا بدور المثقف في دحض المعترف به رسميا من ادعاءات ثقافية سائدة والظلم السياسي والاجتماعي المرتكب في حق الضحايا وقول الحقيقة واضحة وصريحة .

إن مقاومة الاحتلال والهيمنة هي في الأساس عملية ثقافية مضادة، تسعى لتشكيل ثقافة بديلة، لما غرسه الاحتلال في مشاريعه الاستعمارية وهي ثقافة راسخة وحاضرة في التراث والتجارب العربية والإسلامية، وقد رافقت عمليات النهضة وأدت في

يرى إدوارد سعيد بأن سياسة الهيمنة والاختلاق من أول الوسائل الاستعمارية التي تتسلح بها الإمبريالية الغربية، وتنتهجها في طمس كل معالم الهوية الأصلية للسكان الأصليين، يقول "هناك بعد آخر للخطاب الثقافي يتعلق بالقدرة على التحليل، بمعنى أن تتخطى القوالب الجاهزة وتضطلع بمهمة تصحيح الأكاذيب التي لا تني تصدر عن السلطة أن تقوم بمساءلة السلطة والبحث عن بدائل ، وهذه الأشياء تمثل جزءا من أسلحة المقاومة الثقافية"⁵

ومن هنا تنشأ المقاومة التي تعمل على تفنيد المعتقد الذي يرى بأن الشعوب المستعمرة لا تملك تاريخاً ولا خطاباً خاصاً بها ، من خلال إعادة اكتشاف وترحيل إلى الوطن كل ما طمس من طرف إولايات الإمبريالية في ماضي السكان الأصليين Les indigènes يعني ما يشكل ذاكرتهم الأصلية⁶ فهي تقوم على استعادة كل ما تم إقصاؤه من الثقافة الأصلية، فقوم هذه النظرية هو الإصرار على الحق في رؤية تاريخ المجتمع كاملا بصورة متناسقة، منسجمة، تكاملية⁷، تلعب الحكايات والسرديات والسير دورا فعالا ضد الخطابات الرسمية للمستعمر وواجهة نظره الأحادية كما شدد على ضرورة تأسيس لغة قومية وطنية ترتكز على الثقافة الشعبية وتلعب دورا حاسما في بناء الأمة .

2. الرد بالكتابة

إن الأدب من أبرز أشكال المقاومة الثقافية التي توجه لكشف زيف ادعاءات المستعمر، حين تغدو الكلمة سلاحا يفضح الصور المزيفة التي رسمها الاستعمار لنفسه عبر وسائله المتنوعة، لتغطية جرائمه الانسانية والاجتماعية والسياسية، حيث تتشكل النصوص وفق آليات تعمل على الرد على الاختلاق ومحاولات تزييف الأحداث والتاريخ.

الخطابات عند أبرز الساسة أو المفكرين أو النخب الثقافية الصانعة للأفكار المؤثرة على وعي المجتمع، ويمكننا أن نختصر رؤيته للمقاومة الثقافية بأنها تسعى إلى ترميم المجتمع والدفاع عن حقيقة وجوده وتاريخه ضدّ جميع ضغوط النظام الاستعماري بل هي فعل مضاد ورد على الخطاب الاستعماري وكشف للأنساق المضمرة فيه من أجل استعادة كل ما تم تزييفه أو طمسه وإحلال خطاب قومي بديل عن الخطاب الاستعماري ، فلا يمكن أن تتحقق الا عبر الوسائل الأتية:

1. الوعي باستراتيجيات الهيمنة والاختلاق:

يجنح الخطاب الكولونيالي إلى تبني وتصدير صورة تمثيلية عن المستعمر تتوافق مع مشاريعه الاستعمارية والاستيطانية، والتي تكون خادمة لمقاصده تعتمد على آلية الاختلاق وتزييف الحقائق من أجل صناعة تاريخ ملفق يتوارى حول هذه الصور التمثيلية، في محاولة القضاء على الهوية الأصلية للمكان. أمام هذا الواقع الجديد الذي تفرضه إرادة الهيمنة والاحتلال، تتشكل الذات المستعمرة وفق هذه الرؤى الثقافية التي صاغها المستعمر ثم تبنتها شرائح نخبوية واسعة وفاعلة في تلك المجتمعات عن نفسها، ووفق ما تقتضيه العلاقة مع الآخر، لتفقد الأمة هويتها الأصلية وتصبح تابعة وراضخة للمشروع الاستعماري .

يقوم رد الفعل ويتأسس الخطاب المقاوم على الوعي بالتجربة الاستعمارية وكل النواحي التي تجسد فيها الفعل الكولونيالي و كشف آليات التضييل والسعي نحو تقويض هذه الصور المزيفة ثم إعادة بناء الصورة الحقيقية للذات بعيدا عن تشويهات التاريخ والاستعمار.

3. من القومية الانفصالية إلى الانفتاح الحضاري.

أمام التركيبة المعقدة والإيديولوجيات المتصارعة التي يشهدها العالم بين الحضارات والهويات الثقافية المختلفة، أصبحت الشعوب اليوم تحتاج إلى لغة التسامح والحوار الإنساني، وصار الاعتراف بفضل الحضارات على بعضها البعض واحترام الأنا للآخر مطلباً إنسانياً وضرورياً، ليس على أساس النزعة الإمبريالية وإبادة الخصوصيات الثقافية بل وفق أسس الحوار المبني على الحرية واحترام الاختلاف والتعدد الثقافي.

لا يمكن نفي دور المقاومة القومية في القضاء على الاحتلال وأهمية التشبث بعناصر ومكونات الهوية، فالحوار مع الآخر لا يبدأ إلا بعد التحقق من مسألة الهوية وإعادة تعريف حدودها له، فإنها "لحقيقة تاريخية أن القومية، بما هي ترميم للمجتمع، وتأكيد للهوية، وانبثاق لممارسات ثقافية جديدة، من حيث هي قوة سياسية معبأة، قد حرضت ثم دفعت إلى الأمام الصراع ضد السيطرة الغربية في كل مكان من العالم غير الأوروبي"¹¹ لكن المغالاة في الإحاطة بها يسقط الهوية في برائن الانغلاق والتحجر من خلال تقديس التراث المحلي ورفض التفاعل والحوار مع الهويات الأخرى، فالنزعة القومية المتصلبة والمنغلقة على نفسها تؤدي إلى تضخيم صورة الذات وتمجيدها، مصدرة بذلك للعنف وإقصاء الآخرين وخلق العداء والصراع مع الآخر، فقد كان إدوارد سعيد ينتقد وبشدة "الهويات المتصلبة، الانفصالية التي تنصب نفسها نقيضاً للآخر، وتقيم الحواجز بينها وبين الآخر، سواء أكانت هذه الهويات تتحدد في سياسيات الهوية عند المرأة، عند الذكر، أو عند العربي أو الغربي أو الإسلامي أو عند المسيحي أو اليهودي"¹²

يرى إدوارد سعيد بأن المقاومة ليست مجرد رد فعل، بل هي تأسيس لقراءة بديلة للتاريخ والثقافة ونهج بديل في تصور التاريخ البشري⁸ من خلال تحطيم الحواجز بين الثقافات، يقوم على القراءة الواعية للنصوص في إطار الفهم العام للثقافات وخصوصية الهويات.

قد مارست كتابات العالم الثالث على تنوع أجناسها كالمسرحية أو الحكايات الشعبية أو السير الذاتية أو مذكرات السجن وصنوف الأدب المتنوعة هذا النوع من خطاب المعارضة وشكلت كتابات محمود درويش وغابرييل غارسيا ماركيز وسليمان رشدي وكارلوس فوينتوس وول سوينفايز وأحمد والطيب صالح وعبد الكريم الخطيبي⁹ مساهمة متميزة وثقافة جديدة بازغة، تصدر من التابع والهامش الذي ينتمي إلى الأقاليم المستعمرة يكتب من أجل المعارضة ومقاومة السلطة والهيمنة وإن اضطروا أحياناً للكتابة بغير لغاتهم الأصلية، نصوص لا تسعى إلى محاكمة التاريخ والمركز بقدر ما تهدف إلى إثبات الذات والتعبير عن الكينونة في مرآة الغير يقول " لذلك يحمل كتاب العالم الثالث في مرحلة ما بعد الإمبريالية ماضيهم في أعماقهم ندوبا لجراح مذلة، تحريضا على خلق ممارسات مختلفة، ورؤى للماضي تملك الطاقة على التنقيح وتنزع نحو مستقبل ما بعد استعماري، وتجارب قابلة بإلحاح لإعادة التأويل والتوزيع والمركزة، فيما ينطق الأصلااني الذي كان صامتا في السابق ويمارس الفعل على أرض استعادها، كجزء من حركة مقاومة شاملة"¹⁰، هو ما يعرف بتعبير بيل أشكروفت بالرد بالكتابة writing back حين يتم اتخاذ الكتابة أداة للمقاومة ولإثبات الذات وتفكيك ثقافة التماهي مع الآخر، وفضح الصور المزيفة التي رسمها الاستعمار عن نفسه.

في العقود الأخيرة، وروائي يؤمن بأهمية قلمه في نصرة القضايا الإنسانية والتسلح بالوعي النقدي، من خلال الطعن في الثقافة السائدة والمناهج التقليدية القائمة، وممارسة حرية الرأي والتعبير، ما يفضي به إلى تلك الرؤية النافذة عن واقع بلاده وربما قارب ذلك من رؤية وتجربة شخصية، فقد اضطر إلى مغادرتها زمن النكبة والعيش في شرح المنفى الذي أجاد تصوير معاناته في روايته هذه، يعلق الناقد فيصل دراج على نصه 'المدهون عمل على إنتاج رواية فلسطينية شاملة، فكتب عن فلسطين التي كانت، وعن الفلسطينيين الذين انتهوا إلى خارجها، وقرأ أسى الفلسطينيين في المنفى، حيث الإقامة في اللا إقامة، ومنفاهم السّاحر داخل فلسطين (عرب الداخل) وغزة، وهؤلاء الموزعين على أكثر من مكان وإقامة وتذكر، وأكمل المشهد الروائي بحوار بين عذابات الفلسطينيين والهولوكوست، معطيًا في التّحديد الأخير التزامًا بفلسطين، لا التباس فيه ولا مساومة'.¹⁴

كيف عالج ربي المدهون قضيته الوطنية؟ وما المنظور الذي عبر به عن التحولات الحاصلة في المجتمع الفلسطيني؟ هل يندرج نصه ضمن المقاومة الثقافية؟ وما المستويات التي اشتغل عليها؟ وما هي التقنيات السردية التي اعتمدها في نسج نصه الروائي؟

4-1 سردية النكبة: قراءة بديلة للتاريخ والثقافة

تقدم الرواية تاريخًا مغايرًا على التاريخ الرسمي الذي تصنعه السلطة، فبإمكانها تكسير المحرمات التي وضعها واختراق بنيته وتركيبية مجتمعه، فالتاريخ الذي تقدمه وتسجل أحداثه عبر صفحاتها هو الحقيقة، بحيث تنطلق من مراجعة الذات والتشكيك في ما يقوله التاريخ الرسمي،

إنّ التحرر من السلطة الاستعمارية هو المطلوب الأول للأقطار التي عانت من ويلات الاستعمار، وهو ضرورة للتحرر الفكري والثقافي والسياسي، لكنّه لا يتأتى إلا من خلال "تجاوز أشكال القومية المتحجرة التي هي استنساخ واجترار من طرف أقطار ما بعد الاستعمار للقومية الأوروبية العدوانية"،¹³ فقد أصبح من المغالطة اليوم في تاريخنا الحديث العودة إلى القومية والنظريات التي تطالب بضرورة الفصل بين الثقافات والتمييز بين مختلف الحضارات والقوميات، لأن الثقافات لها تاريخ طويل منسوج على التلاقح والتهجين وليست مجردة بل مترابطة ومتعلقة ترتحل الأفكار بينها وتؤثر وتتأثر.

لذا يتم محاربة مبدأ القومية المغلقة والصراع القائم بين البشر على الأصول والأعراق والحدود والجغرافية، والفصل بين الثقافات، والنزاع بينها لتبوء المكانة الأفضل وأخذ صفة المركزية، والدعوة إلى الهجنة والتلاقح بين الهويات والتشارك بينها للتخفيف من شدة التحيز ضد كتابات دول العالم الثالث وجعل العالم مكانًا أكثر نبلا وإنسانية.

4-2 المقاومة الثقافية في رواية ربي المدهون:

سعت الرواية الفلسطينية المعاصرة إلى تناول القضايا الراهنة قضايا الإنسان والوطن من أجل التغلب على الانغلاق على الذات واتخذت من العقل سلاحا لمقاومة الاستبداد، فحولت مسار الكتابة إلى تفجير الوعي بسياسات السيطرة الاستعمارية ومناهضة للهيمنة الاستيطانية والتمسك بالهوية الثقافية كسبيل للتعبير عن حرية الرأي والخصوصية الفكرية والأبعاد الإنسانية للمقاومة ورفض العنصرية والتحيز للأنا أو الآخر.

يبرز ربي المدهون كمثقف واع بالتغيرات السياسية والاجتماعية الذي تحيط ببلده فلسطين

ترفع الرواية ما يجري في الواقع اليومي من حوارات وهموم وألام ، والتفتت إلى القاع المجتمعي المسكوت عنه أو المهمل تصور تفاصيله وتبحث عن قصص وحكايات الضحايا المهمشين، لأنهم صناع التاريخ الحقيقي، تقول السيدة فاطمة العكاوية الملقبة بالست معارف تكشف عن الواقع المرير الذي يعيشه من رفض الهجرة وبقي تحت الحصار، في ردها على جولي التي تمنى موت أمها في فلسطين "ايش حبيبي، أمك ماتت في لندن عكاوي غريب؟ احمدي ربك واشكركه، تعي شوفينا هون، غربا في بلادنا ولاجئين، ما في فرق بين الميتين واللي عايشين"¹⁶

فيتشكل هذا النص باعتباره فعل كتابة مضادة ، تعيد سرد أحداث النكبة وواقع الفلسطينيين المشتتين داخلها وخارجها، يسترجع الكاتب خلالها صور الاختلاق التي مست المدن ويتم فيها تمثيل الأنا في حقيقتها ، فهي ليست عن مصائر الباقيين هناك فقط بل عن مصائر المدن الفلسطينية التي لا يمكن أن تزول، مدن مثل عكا والقدس وحيفا والمجدل عسقلان ويافا الرائحة ذاتها والأزقة لم تتغير مهما أخفتها اللافتات، ومهما تغيرت الأماكن، وزحفت المستوطنات، يقاوم السرد زوال الهوية الفلسطينية اللهجة والطعام والشراب والأغاني ومأساة الإنسان الفلسطيني.

2-4 الحوار الحضاري

حين وجد ربعي المدهون في السياسة طريقا مسدودا وأفقا منغلقا، راح يشكل خطابه السياسي من خلال الأدب من زاوية مختلفة تماما، تقوم على تغليب الحوار الحضاري وتجاوز الرؤى الأيديولوجية الضيقة من الطرفين، حيث قاد التشبث بالماضي والصراع على الأحقية الى تضيق الحياة على الفلسطينيين، أمام تجاهل واقع أنها أصبحت أرضا

وإعادة قراءته قراءة متحررة تقوم على خلخلة البنى الجامدة والتشكيك في المسلمات المتعارف عليها و زعزعة المركزي واستدعاء الهامشي والمسكوت عنه.

تغترف رواية مصائر من التاريخ الفلسطيني منذ بداية الاحتلال إلى غاية مفاوضات أوسلو من خلال قصة عائلة فلسطينية ترغب في العودة إلى الوطن ، فوليد أحمد دهمان، الفلسطيني الحاصل على الجنسية البريطانية، مع زوجته جولي جون ليتل هاوس لتنفيذ وصية حماته الفلسطينية الأرمنية إيفانا أردكيان، بنثر رفاتها بين بيتها القديم في عكا، وكنيسة القيامة في القدس. في ثنائية الهجرة والعودة التي أصبحت هاجس كل فلسطيني، وإن اضطر أن يعود رمادا محترقا في تمثال من الخزف، بعد الشتات الذي تعرض له هذا الشعب، بتاريخ 1948 الحدث الأبرز في تاريخ فلسطين .

شكلت النكبة تاريخ الجرح الفلسطيني، تمثل التهجير القسري الجماعي للآلاف من بيوتهم وأراضيهم في فلسطين، وتمثلت في نجاح الحركة الصهيونية - بدعم من بريطانيا- في السيطرة بقوة السلاح على القسم الأكبر من فلسطين وإعلان قيام إسرائيل. ثم بدأ محاولات طمس معالم الهوية الفلسطينية بالقضاء على المعالم العمرانية وتهويد الأسواق والشوارع والجوامع يقول وليد " دخلنا البيت الذي كان لنا قبل سقوط المجدل عسقلان في أيدي القوات الإسرائيلية بتاريخ 4 نوفمبر 1948 والسوق القريبة بعد أن هجر أصحابه، وصار مشاعا لمن يسرقه بمبادرة شخصية، أو تسرقه الوكالة اليهودية التي وزعت الغنائم من أملاكنا، بعد احتلال المدينة، على بعض العائلات اليهودية المهاجرة "¹⁵

هذا التاريخ خلف وضعية قاسية وهوية متشظية للذين بقوا في وطنهم بعد الحرب أو الذين وأصبحوا بحكم ذلك مواطنين في دولة اسرائيل،

تحتوي على لهجات اجتماعية متفرقة وفئات متباينة بحسب الأجيال والأعمار والمهن والأجناس التعبيرية ، لتصبح بذلك الرواية بناء يتسم بالتعدد اللغوي والانفتاح والتحرر من سلطة اللغة الواحدة .

إن هذه الطبيعة التركيبية الحوارية للخطاب الروائي هي" التي تتيح التقاط إيديولوجيا الرواية انطلاقاً من لغات متلفظها، ومن ثم اعتبرت اللغة مدخلاً أساسياً لدراسة مختلف متغيرات الواقع الاجتماعي، وذلك عن طريق ربط الدليل بالإيديولوجيا، يقول باختين في هذا الإطار إنّ كلّ ما هو إيديولوجي دليل ولا وجود للإيديولوجيا بدون أدلة"²²، وهي تترجم على مستويات عدّة في الرواية ، عبر أقوال الشخصيات الروائية على اختلاف أوساطهم وأعمارهم تجاربهم الحياتية لتبرز بدورها تعدداً فنياً على مستوى أنماط الوعي أو اللغات أو الأساليب.

تتمتع شخصيات مصائر بالاستقلالية والحرية في التعبير عن عوالمها الداخلية والموضوعية، ما أكسبها بعداً فاعلاً ومتفاعلاً وتحررت من كونها مجرد كائنات ورقية، ليتسنى لها الإفصاح عن وعيها الأيديولوجي الذاتي الذي يشكل هويتها ويمثل خصوصية تفكيرها ، فجنين التي درست في أمريكا، تصرح برغبتها في أن تعود إلى يافا، وأن تظل فيها، رغم معاناة زوجها باسم، الفلسطيني الذي يحمل الجنسية الأمريكية، من عدم حصوله على تصريح بالعمل في إسرائيل. " تعي معي بيت لحم من شأن الله تيجي " يرحوها وهو يتحايل عليها تبكي لها وله ، تبكي عليها وعليه على حبهما الذي فتح طريقاً للعودة إلى الوطن لكي يفترقا فيه " يا ربي مش معقول الغربة تجمعنا ويفرقنا الوطن"²³

يخلق الحوار التفاعل والتلاقي والتشابك بين الشخصيات داخل الرواية ، فيظهر حدة الصراع

إن الإيمان في الفعل الإبداعي يكشف عن مسارات التحول التي لامست مكونات المتن الروائي وسأيرت تحولات القضية الفلسطينية وخلقت رؤية واضحة عن الذات والمجتمع والكون، من جهة ومست مستويات التعبير الفني من جهة أخرى والتي تنغيا استحداث نصوص قادرة على استيعاب تتداخل الأجناس وامتزاج الفنون وتعدد الأصوات والأساليب والحكايات في مزيج ساحر يعبر عن طموح الكاتب في بلورة مشروع روائي تجديدي "فالتجريب قرين الإبداع لأنه يتمثل في ابتكار طرائق وأساليب جديدة في أنماط التعبير الفني فهو جوهر الإبداع وحقيقته عندما يتجاوز المألوف ويغامر في قلب المستقبل مما يتطلب الشجاعة والمغامرة، واستهداف المجهول دون التحقق من النجاح"²⁰

ولا يتم ذلك إلا على مستوى اللغة التي تعد أداة أساسية في الفن الأدبي بها تتحدد الحكاية وتتشكل جميع العناصر الأخرى "فباللغة تنطق الشخصيات، وتنكشف الأحداث وتوضح البيئة ويتعرف القارئ على طبيعة التجربة التي يعبر عنها الكاتب"²¹ وتكون قريبة من الواقع تعكس رؤيته له.

4-4 تعدد الأصوات: اللغة مرصد للتحولات الاجتماعية

نظر باختين إلى اللغة باعتبارها المستوى الأول لدراسة الإيديولوجيا و مرصداً للتحولات الاجتماعية، إلى جانب الاهتمام بالجانب الجمالي فيها، فإنها تعكس كل مراحل التحولات التي مر بها المجتمع، وتصور بشكل دقيق الصراعات واللغات الاجتماعية المختلفة، ويتجلى ذلك على نحو واسع في الرواية التي تعد ملتقى للألسنة والأساليب والأصوات الجماعية والفردية التي تنتظم فيها أدبيات، تستوعب داخل بنائها الكثير من الوحدات غير المتجانسة،

بعد أن فرت عائلته من مدينة المجدل عسقلان ، على وقع القنابل والرصاص، حمل لقب «الباقى هناك»، وحصل على الجنسية الإسرائيلية، هو التيس العنيد المتمسك بأرضه إلى درجة يطلق على أولاده أسماء مثل «فلسطين» و«غزة» و«جنين». هو واقع ومصير الفلسطيني الذي دفع ثمن تمسكه بأرضه بالموازاة مع مصير المنفي المشتت عنها أيضا.

تعارض هذه الشخصية المتخيلة أصوات كثيرة داخل الرواية لتدلل على أنها أصبحت مجتمعا متشعبا بالأيديولوجيات والرؤى والأفكار المتعارضة حيث يسعى الكل إلى إثبات قناعاته ورؤيته الخاصة الأشياء والواقع ، ما أدى إلى تعدد أنماط الوعي بتعدد الشخصيات وتنوع ثقافتها واختلاف منظوراتها السياسية للقضية " في نهاية كلامها، قالت أمي لعمتي " فش فلسطيني في الدنيا يقبل ع حاله يصير اسرائيلي يا بنت عم ، ون صار ما بيكون بايده ولا بكيفه ولا بخاطره محمود صار اسرائيلي غصبن عنه يا حاجة، غصبن عنه صار، وابصراحة بقول لك اياها ع روس الاشهاد منيح اللي محمود بقي هناك امنيح اللي ما هاجر زينا واتهدل الهدلة في لبلاد يا حاجة، حتى مع اليهود ، أشرف وأرحم ميت مرة من الهدلة والشرحة في المخيمات ²⁶.

إن هذه الأصوات هي جزء من ثقافة المجتمع، والرواية مكونة من هذه الخطابات التي تعيها الذاكرة الجماعية، "فلا تظل الرواية صنعة وعناصر تقنية تكتسب، إنها قبل كل شيء إدراك لأهمية اللغة / اللغات داخل المجتمع" ²⁷ تسعفنا على قراءة الوضع العام وفهم عمق المأساة فلا شك أن الشتات بين المنافي والمخيمات هو أسوء ما أنتجه الصراع بين اليهود والفلسطينيين أمام واقع يظل محملاً بمرارة الآمال الخائبة والأحلام المهضبة للشعب الفلسطيني

بينهما لأن كل طرف يسعى الى إثبات صحة منظوره، وتأكيد يقينية وعيه الذاتي ، ثم يسعى إلى بناء واقع يتماشى مع هذا الوعي 'رجاها باسم أن يذهبها معا الى بيت لحم ، قال وقد سبقه قراره إلى المدينة:(بيت لحم بتسوى العالم كله، تعي معي على بيت لحم أهلي وإخواني واللي باقى من أرض أبوي، كله فيبيت لحم أو قريب منها بكرة يصير اللنا دولة، وبنخلف هناك، وبزري ولاد يكونو فلسطينية عن جد مش نص نص ²⁴ رغم صعوبة الظروف المحيطة بهم في هذا الوضع التاريخي الحرج.

إن وعي الشخصية الروائية الذي يحكمه منظوران نظرتها الى نفسها ونظرتها الى العالم ويحركه في الأساس وعي المؤلف الصانع للأحداث ، والمسير لمصير الشخصيات فيحرك محاور الصراع دون أن ينحاز الى جانب دون الآخر يتوسع في وعيه الخاص ويعمقه ويعمل على إعادة تركيبه وتوزيعه، فيلتقط إيديولوجيا المجتمع ضمنا أثناء نقله لمكوناته الثقافية والفنية والأدبية وتظل غير واضحة المعالم تلفظها الشخصيات ولا تفهم بشكل جلي إلا بعد الانتهاء من قراءة العمل الروائي، "إن صوت الكاتب أو أيديولوجيته يكونان موجودين ضمن الأصوات المتعددة المتعارضة منذ بداية الرواية، غير أن جميع هذه الأصوات تبدو متعادلة القيمة بحيث يكون من المتعذر تماما تحديد الموقف الذي يتبناه الكاتب، ما دام الصراع الأيديولوجي في شبه حياد تام" ²⁵ ونقف عند صوت الكاتب في انتقاءها لشخصية جنين الراضية لأن تتزحزح من مكانها الأصلي يافا ، هي الكاتبة الذي تتمسك بعناد بالذاكرة وتسرد إيديولوجيا البقاء رغم الظروف الصعبة، يأتي اختيارها لشخصية محمود دهمان بطل روايتها " تيس فلسطيني" الذي استلهمت صورته من شخصية والدها، فقد رفض أن يبقى في المخيمات،

في إنشاء دولة فلسطينية، وإرساء فكرة دولتين متجاورتين تضمن الحياة بسلام.

5-4 الكونشرتو الموسيقي²⁸

تنتفتح الرواية على آليات التجريب وتعمل على مواكبة أسئلة الكتابة الجديدة ما تعلق بالقضايا السياسية والاجتماعية والتاريخية والانسانية من جهة وكسر بعض الحدود الفنية والأجناسية المتعارف عليها من جهة ثانية، من أجل تجاوز الأنماط السردية السائدة وشق طريق مغاير نحو الانفتاح على مختلف الفنون الصامتة وغير الصامتة وقد وجد الكاتب في الموسيقى منبعاً جديداً يعينه على تكثيف قدراته وطاقاته اللغوية والإبداعية.

بنى الكاتب روايته وفق قالب الكونشرتو الموسيقي المؤلف من أربعة حركات تشغل كل منها حكاية لها أبطالها الذين لهم مسارات مختلفة توهم القارئ بأنها غير متجانسة لكنها تلتقي في الأخير وتتألف فيما بينها.

الحركة الأولى: قصة ايافانا ارديكان الفتاة الفلسطينية العكاوية من أصول أرمنية التي تغرم بطبيب بريطاني وتغادر معه أيام الانتداب البريطاني سنة 1948م وتوصي ابنتها جولي بدفن جزء من رماد جثتها في عكا القديمة أو القدس.

الحركة الثانية: حكاية جنين مع زوجها باسم والصراع حول الهجرة أو البقاء الذي يدور بينهما ، تنشغل جنين بكتابة روايتها " فلسطيني تيس" عن محمود دهمان الذي أراد الهجرة من المجلد عسقلان عام 1948م إلى غزة لكنه يحاصر فيترك عائلته ويعود تحت مسمى الباقي هناك أو الفلسطيني الذي يعيش في دولة إسرائيل.

الحركة الثالثة: تقرر جولي ابنة ايافانا العودة الى فلسطين لتنفيذ وصية والدتها رفقة زوجها وليد دهمان، يقومان معا بجولة حول المدن الفلسطينية، تقترح جولي الإقامة الدائمة بفلسطين ويبدأ الثنائي التفكير في الأمر.

الحركة الرابعة: تلتقي جولي وزوجها وليد بالكاتبة جنين ويتعرفان على روايتها ومصير علاقتها باسم زوجها، ثم يزور وليد متحف المحرقة "يد فشم" ويطلع على حادثة الهولوكست .

توظيف الموسيقى كان على مستوى الشكل المعماري الهندسي للرواية، حيث تتقاطع هذه الحركات بتموج وتشق الشخصيات طريقها في ايقاع مناسب نحو مصيرها الغامض وسط الشتات وفقدان الهوية وهجنة الثقافات واللغات لتلتقي في الأخير فيجمعها الصوت والحرف الواحد، وتصير الكتابة عن فلسطين والمغتربين والعائدين هي المعزوفة الكبرى التي تضم كل هذه الحركات.

وقد انطلق الكاتب من وعيه بضرورة تلوين نصه بإيقاعات جديدة وطرق عوالم فنية ابداعية، تخلق نسيجاً سردياً مبتكراً، يتواشج فيه النص بتقنيات وأدوات الموسيقى، ما أكسبه طاقة فنية وجمالية أثرت على البناء المعماري للرواية وتداخلت أبعادها اللغوية والاجتماعية والتاريخية والفنية ، وقد أشار الى ذلك في مطلعها "لا يعني هذا التركيب التجريبي توريث القارئ في قواعد التأليف الموسيقي وتعقيداته، بل يعني اصطحابه لتذوق عمل أدبي يستعير لبنائه شكلاً موسيقياً، تنتظم حكاياته على إيقاعاته الحسية، خارجة من التجريد الموسيقي الى فضاء السرد البسيط الأول"²⁹ ذلك أن الموسيقى فن يمسك بالزمن بشكل دائم، وهذا ما نلاحظه في المقطوعة مهما تعددت حالات الاستماع اليها، فإنها تتلاعب بالزمن وتحنطه في لحظات تجريدية تتجاوز

يظهر تأثر ربيعي المدهون بمقاربة إدوارد سعيد للقضية الفلسطينية والنخب المثقفة والمتحررة إيديولوجيا من ثقافة الهيمنة الغربية، والتمسك بنضال المثقف الملتزم والمؤمن بشمولية القضايا الإنسانية وقدرتها على استيعاب صوت التجربة الانسانية بعيدا عن التحيزات العنصرية والمغالطات التاريخية ما يفضي الى بناء هوية هجينة تتصالح مع الاختلاف والتعدد وإقامة دولة ديمقراطية يتحمل فيها الطرفان مسؤولية الصراع .

ينفتح النص الروائي على آليات التجريب ويعمل على مواكبة أسئلة الكتابة الجديدة وتقنيات السرد الحديثة يكشف عن طريق تعدد الأصوات واختلاف الشخصيات عن جزء من ثقافة المجتمع الفلسطيني وتشبثه بالهوية الأصلية للمكان وانقسام الإنسان إلى هويات عدة ومصائر شتى أرهقها الشتات والمنفى ولا رغبة لها سوى العودة أو البقاء.

الهوامش والإحالات:

- 1 إدوارد سعيد: الثقافة والامبريالية، ترجمة كمال أبو ديب. دار الآداب للنشر والتوزيع. بيروت. ط.4. 2004م ص276
- 2 إدوارد سعيد: الثقافة والمقاومة. ترجمة علاء أبو زينة. دار الآداب. بيروت . 2006. ط1 ، ص 188
- 3 إدوارد سعيد: العالم والنص والناقد، ترجمة عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتاب العرب. 2000م. ص28
- 4 إدوارد سعيد: الثقافة والمقاومة، مرجع سابق ص142
- 5 إدوارد سعيد: الثقافة والمقاومة. ص 142
- 6 إدوارد سعيد: الانتفاضة الثقافية. محمد الجرطي. صفحات للدراسات والنشر والتوزيع. سوريا . دمشق . ط1. 2017م ص 131
- 7 المرجع نفسه. ص131
- 8 المرجع نفسه 132

المألوف وتصنع الدهشة و التنوع ، لذا ارتكز عليها الروائي أثناء تحكّمه في حركية سير الأحداث وارتبطت بحركات الشخص فجنين بدأت العزف كتابة على ألحان الرغبة في البقاء داخل الوطن، وتحقيق مفهوم الوجود الزماني خارج الجغرافيا، والعودة الى الكينونة التاريخية للهوية والوعي بها مهما توزعت بين الأمكنة .

خاتمة

في ختام هذه الدراسة يمكننا أن نحدد أهم النتائج التي توصلنا إليها وندرجها كالآتي :

المقاومة الثقافية فعل مضاد ومركب يقوم على مجابهة الخطاب الكولونيالي واستعادة التواريخ والأحداث التي طمست من السكان الأصليين وتفكيك استراتيجيات الاستعمار والوعي بسياسته نحو الهيمنة وذلك وفق مستويات عدة سياسية واجتماعية وثقافية . ومراحل قوامها إعادة التأويل واقتراح بديل يتم فيه تصحيح المعرفة التي أنتجها الاستعمار، بواسطة الرد بالكتابة يقاوم الادب أشكال الهيمنة ويفضح الصور المزيفة التي رسمها الاستعمار عن نفسه.

إن الفكر النقديّ الإنسانيّ لا يُنتج ظلماً بديلاً أثناء سعيه إلى الانعتاق من الأسر، ولا تنضج المقاومة الثقافية إلا في فضاء يرفض الأصوليّة المتطرفة والزعة القومية المنغلقة التي أبانت عن قصورها بما أحدثته من حروب إثنية وصراعات إيديولوجية لا خلاص منها، ما أفرز تغير موقف الإنسان اتجاه الحدود الفاصلة بين القوميات في سبيل تجاوز الإكراهات العنصريّة وإحداث وسط ثقافي يحتضن تطلعات الشعوب نحو الحرية والسلام، ويعمل على ترسيخ الاختلاف الثقافي والتفاعل بين الأمم الثقافات.

25 محمد عزام: فضاء النص الروائي. مقارنة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان. دار الحوار للنشر والتوزيع. ط1. 1996. ص 145

26 ربيعي المدهون: مصائر كونشيرتو الهولوكوست والنكبة، ص 125

27 مخائيل باختين: الخطاب الروائي. ص 45

28 الكونشرتو (Concerto) تأليف موسيقي غربي يتكون عادة من ثلاث حركات، بدءاً من الأداء المنفرد من آلة واحدة (على سبيل المثال، البيانو والكمان والتشيلو أو الفلوت) ويرافق من قبل فرقة موسيقية أو فرقة موسيقية.

تم تقسيم أنواع الكونشرتو وفقاً لعدد ونوع الآلات الفردية، وهي مجموعة من كونشيرتو فردية تحتوي على ثلاث آلات أو أكثر، وتعني بذل الجهد أو الكفاح. ينطلق الجزء الأول وهو أهم ويكون عادة سريعاً. ثم الجزء الثاني وهو لحن عاطفي هادئ الحركة يقترب من شكل الأغنية. والجزء الثالث وهو الأخير، يكون بأسلوب اللحن السريع والذي يبرز فيه العازف المنفرد في الأدوار سريعة الإيقاع كامل قدراته الأدائية.

للتوسع، انظر: <https://mimirbook.com/ar/>

29 ربيعي المدهون: مصائر كونشيرتو الهولوكوست والنكبة. ص 2

قائمة المصادر والمراجع

- إدريس خضراوي ادريس خضراوي. السرد موضوعاً للدراسات الثقافية نحو فهم لعلاقة الرواية بجدلية السيطرة والمقاومة الثقافية. مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية . العدد7. المجلد الثاني. 2014.
- ربيعي المدهون مصائر كونشيرتو الهولوكوست والنكبة. مكتبة الفكر الجديد. د. ط. د
- إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية. ترجمة كمال أبو ديب. دار الآداب للنشر والتوزيع. بيروت. ط4.
- إدوارد سعيد: الثقافة والمقاومة. ترجمة علاء أبو زينة. دار الآداب. بيروت . 2006. ط1

- 9 إدريس خضراوي. السرد موضوعاً للدراسات الثقافية نحو فهم لعلاقة الرواية بجدلية السيطرة والمقاومة الثقافية. المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية . العدد7. المجلد الثاني. 2014. ص 107
- 10 إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب. دار الآداب للنشر والتوزيع. لبنان بيروت. ط4. 2004م ص 270
- 11 المرجع نفسه. ص 276
- 12 إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية ص 275
- 13 إدوارد سعيد: من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء الهجنة والاختلاف، ترجمة محمد الجرطي، منشورات المتوسط، ميلانو إيطاليا. د. ط. د. ت. ص 111
- 14 فيصل دراج: مصائر" ربيعي المدهون أول رواية لكاتب فلسطيني تنال جائزة "بوكر" العربية صحيفة الغد <https://alghad.com>
- 15 ربيعي المدهون: مصائر كونشيرتو الهولوكوست والنكبة. ص 16
- 16 المصدر نفسه، ص 20
- 17 ربيعي المدهون: مصائر كونشيرتو الهولوكوست والنكبة. ص 237
- 18 المصدر نفسه، ص 36
- 19 ربيعي المدهون: مصائر كونشيرتو الهولوكوست والنكبة. ص 237
- 20 صلاح فضل: لذة التجريب الروائي ، أطلس للنشر والانتاج العلمي، القاهرة. ط1. 2005م. ص 3
- 21 عثمان عبد الفتاح: بناء الرواية -دراسة في الرواية المصرية . مكتبة الشباب. القاهرة. 1982
- 22 مخائيل باختين. الخطاب الروائي. ترجمة محمد برادة. رؤية للنشر والتوزيع. ط1. 2009. ص 44
- 23 ربيعي المدهون: مصائر كونشيرتو الهولوكوست والنكبة. ص 110
- 24 المصدر نفسه ص 115

- سعيد. ادوارد العالم والنص والناقد. ترجمة عبد الكريم محفوظ. منشورات اتحاد الكتاب العرب. 2000م.
- إدوارد سعيد. من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء الهجنة والاختلاف. ترجمة محمد الجرطي، منشورات المتوسط، ميلانو إيطاليا. د. ط. د. ت
- صلاح فضل ، لذة التجريب الروائي ، أطلس للنشر والانتاج العلمي، القاهرة. ط. 1. 2005م .
- عثمان عبد الفتاح.. بناء الرواية –دراسة في الرواية المصرية . مكتبة الشباب. القاهرة. 1982
- فيصل دراج. مصائر" ربعي المدهون أول رواية لكاتب فلسطيني تنال جائزة "بوكر" العربية صحيفة الغد <https://alghad.com>
- محمد عزام. فضاء النص الروائي. مقارنة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان. دار الحوار للنشر والتوزيع.. ط. 1. 1996.
- مخايل باختين. الخطاب الروائي. ترجمة محمد برادة. رؤية للنشر والتوزيع. ط. 1 .